

عظة في أحد المرأة السامرية: عن عبادة الله في الروح والحق

القديس اغناطيوس (بريانثانينوف)

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

“السَّاجِدُونَ الْحَقِيقِيُّونَ يَسْجُدُونَ لِلآبِ بِالرُّوحِ وَالْحَقِّ، لِأَنَّ الْآبَ ظَالِمٌ مِثْلَ هَؤُلَاءِ السَّاجِدِينَ لَهُ.” (يوحنا ٢٣:٤)

أيها الإخوة الأحباء!

لقد سمعنا اليوم في الإنجيل أن الخدام الحقيقيين للإله الحقيقي يسجدون له بالروح والحق، وأن الله يطلب، أي يرغب في أن يكون له، مثل هؤلاء الساجدين. إذا رغب الله في أن يكون له هؤلاء الساجدون، فمن الواضح أنه لا يتقبل إلا مثل هؤلاء الساجدين والخدامين، ولا يرضيه غيرهم. هذا التعليم نقله إلينا ابن الله نفسه. نحن نؤمن بتعليم المسيح! نحن نقبل تعليم المسيح الكلي القداسة بكل محبتنا! ولكي نتبعه بعناية، لنلقي نظرة على معنى السجود لله الآب بالروح والحق.

إن الحق هو ربنا يسوع المسيح، كما يشهد عن نفسه: أنا الطريق والحق والحياة (يوحنا ١٦:٤). الحق هو كلمة الله: كلمتك هي حق (يو ١٧:١٧). هذا الكلمة كان قبل الدهور في الله، وقد أعلنها الله ولله. هذا الكلمة هو الله، هذا الكلمة هو خالق كل ما هو موجود، منظور وغير منظور (راجع يوحنا ١:١ و٥؛ كولوسي ١:١٦). هذا الكلمة تجسد وحلّ فينا (وَرَأَيْنَا مَجْدَهُ، مَجْدٌ وَجِيدٌ مِنَ الْآبِ، مَمْلُوءًا نِعْمَةً وَحَقًّا) (يو ١:١٤). الله لم يره أحد قط، ولكن كلمة الله، الابن الوحيد، الذي هو في حضن الآب، هو قد أعلنه (يو ١:١٨). إن ابن الله، كلمة الله، اعترف بالله أمام الناس، وأظهر الله بالتمام للناس؛ أظهر ابن الله للناس الحقيقة التي لم تكن مفهومة عندهم، بعد أن شهد لها بشكل قاطع وختمهم بها بمنحهم النعمة الإلهية بوفرة. لِأَنَّ النَّامُوسَ بِمُوسَى أُعْطِيَ، أَمَّا النَّعْمَةُ وَالْحَقُّ فَبِيسُوعِ الْمَسِيحِ صَارَا (يوحنا ١:١٧). هذا يعني أن ما جلبه يسوع المسيح لم يكن فهماً أكثر أو أقل وضوحاً وتفصيلاً للنعمة والحق، بل النعمة نفسها والحق نفسه، اللذين يُمنحان أساساً للناس، ويُغرسان في الناس. لقد أصبحنا شركاء في الطبيعة الإلهية (٢ بطرس ١:٤).

للحق روح مميز يسمى روح الحق (راجع يوحنا ١٥:٢٦ و ١٣:١٦) [١]. إنه روح منبثق من الآب (راجع يوحنا ١٥:٢٦). إنه روح الله القدوس (راجع يو ١٤:٢٦) [٢]. إنه روح الابن (راجع غلاطية ٤:٦) [٣]. باعتباره قريباً من الابن بشكل لا انفصال فيه، إذ له مع الآب والابن الجوهر الإلهي الواحد غير المنفصل وغير الممتزج. عند قبول الحق، نقبل أيضاً الروح القدس - ولهذا يقول الحق الكلي القداسة عن نفسه أنه سيرسل الروح القدس من الآب إلى تلاميذه. بطبيعة الحال، سيكون روح الحق القدس حاضراً حيث يعمل الحق القدوس، وسيترك أثراً لعمله. وبنفس الطريقة، حيث يعمل الروح القدس، يكون هناك ظهور وإف للحق، كما قال الرب أيضاً لتلاميذه: ولكن متى جاء روح الحق، سيرشدكم إلى كل الحق (يوحنا ١٦:١٣).

في وصف العلاقة العجيبة بين الكلمة الإلهي والروح الإلهي، قال الرب عن الروح: ذَاكَ يُمَجِّدُنِي، لِأَنَّهُ يَأْخُذُ مَعًا لِي وَيُخْبِرُكُمْ. كُلُّ مَا لِلآبِ هُوَ لِي. لِهَذَا قُلْتُ إِنَّهُ يَأْخُذُ مَعًا لِي وَيُخْبِرُكُمْ. ” (يوحنا ١٦: ١٤-١٥). الروح يظهر ويعلن للناس الابن الذي يشترك معه بالطبيعة. روحياً، الروح القدس يشكل المسيحي الحقيقي ويحوّله إلى مسكن لله (راجع أفسس ٢: ٢٢) [٤]؛ إنه يمثل المسيح ويفرسه في الإنسان الباطن (راجع أفسس ٣: ١٦-١٧) [٥]. إنه يجعل الناس أبناء الله بالتبني، جاعلاً إياهم مثل المسيح، ومؤسساً فيهم خصائص شبيهة بالمسيح (راجع يوحنا ١٤: ٦). [٦].

إن الناس الذين جعلوا أبناء الله بالتبني يتوجهون إليه في صلواتهم تجاه أبيهم، لأن الروح القدس يشهد بوضوح شديد وبشكل ملموس لروح شخص جده (رومية ٨: ١٦) [٧] من جهة اتحاد ذلك الشخص بالله، وتبنيه من الله. ثُمَّ بِمَا أَنَّكُمْ أَبْنَاءُ، أَرْسَلَ اللَّهُ رُوحَ ابْنِهِ إِلَى قُلُوبِكُمْ صَارِحًا: «يَا أَبَا الْآبِ» (غلاطية ٤: ٦). يُعْرَفُ هَؤُلَاءِ المصلون على أنهم عباد حقيقيون لله! هَؤُلَاءِ العابدون، الذين يعبدون الله بالروح والحق، يطلبون الله ويقبلونه. لا توجد معرفة بالله ولا خدمة لله خارج المسيحية الحقيقية.

قال الرب: لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الْآبِ إِلَّا بِي (يوحنا ١٤: ٦). لا إله لمن لا يؤمنون بالرب يسوع المسيح: كُلُّ مَنْ يُنْكِرُ الْابْنَ لَيْسَ لَهُ الْآبُ أَيْضًا (١ يوحنا ٢: ٢٣)، ومن لا يؤمن بالابن فلن يرى الحياة؛ ولكن يَفَكُّ عَلَيْهِ غَضَبُ اللَّهِ (يوحنا ٣: ٣٦). من المستحيل الاقتراب من الله أو الدخول في أي شركة معه بأي طريقة غير ربنا يسوع المسيح، الوسيط والشفيع ووسيلة الشركة الوحيدة بين الله والإنسان! لا توجد معرفة حقيقية للرب يسوع المسيح بدون وساطة الروح القدس! يقول الرسول: لَيْسَ أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يَقُولَ: «يَسُوعُ رَبٌّ» إِلَّا بِالرُّوحِ الْقُدُسِ (١ كورنثوس ١٢: ٣). الآن إن كَانَ أَحَدٌ لَيْسَ لَهُ رُوحُ الْمَسِيحِ، فَذَلِكَ لَيْسَ لَهُ (رومية ٨: ٩). ما من فضيلة خارج المسيحية تستحق السماء! يقول القديس مرقس الناسك: "لا شيء صالح يمكن تصديقه أو العمل به ما لم يكن بيسوع المسيح والروح القدس" [٨].

لا تليق بالله أعمال الإنسان الطبيعية الصالحة التي تصدر عن طبيعتنا الساقطة، حيث يختلط الخير بالشر، وبالكاد يكون الخير فيها ملاحظاً في أغلب الأحيان وسط غلبة الشر. إن الطبيعة الساقطة قادرة على الشر حصرياً، كما شهد الله نفسه: إِنْ تَصَوَّرَ قَلْبُ الْإِنْسَانِ شَرِيرٌ مُنْذُ حَدَاتِهِ (تكوين ٨: ٢١)؛ إِنْ كُنْتُمْ وَأَنْتُمْ أَشْرَارٌ تَعْرِفُونَ أَنْ تُعْطُوا أَوْلَادَكُمْ عَظَايَا جَيِّدَةً (متى ٧: ١١؛ لوقا ١١: ١٣). هذه هي قيمة الخير البشري الطبيعي والنشاط الناجم عنه أمام الأناجيل والله. عبثاً تمجد الطبيعة الساقطة أعمالها العظيمة والمشهورة! هذا الثناء على الذات يظهر عمى رهيباً! مثل هذا الثناء على الذات هو لوم لا إرادي على أعمال البشر الشهيرة، المستوحاة والمتغذية من المجد الباطل. إن رائحة الكبرياء المنبعثة من هذه القبور المبيضة مكروهة عند الله. أما بخور التواضع فهو ما يرضيه.

لذلك أمر الرب البشرية الساقطة والمعمية أن تنكر طبيعتها، لأن الإنسان غير واع لسقوطه المرور. بل على العكس من ذلك فهو يعتبره انتصاراً عظيماً ويسعى إلى رفع هذا الانتصار. للخلاص، يجب أن نتخلى عن الخطيئة! لكن الخطيئة أصبحت جزءاً منا حتى أنها أصبحت طبيعتنا، روحنا. لنهد الخطيئة، أصبح من الضروري

بشكل أساسي نبذ طبيعتنا الساقطة، والتخلي عن أرواحنا (راجع متى ١٠:٣٩) [٩]، للتخلي ليس فقط عن الأعمال الواضح شرّها، بل أيضاً عن أعمال الخير التي كان الإنسان القديم يقوم بها والتي يكرمها العالم ويمجدها. من الضروري بشكل أساسي استبدال طريقة تفكيرنا بفكر المسيح، واستبدال نشاطنا الذي تحركه الحواس وما تمليه عقلية الجسد بإتمام وصايا المسيح بضمير حي. قال الرب: «إِنْ تَبْتُثُّ فِي كَلَامِي فَبِالْحَقِيقَةِ تَكُونُونَ تَلَامِيذِي، وَتَعْرِفُونَ الْحَقَّ، وَالْحَقُّ يُخَرِّزُكُمْ» (يوحنا ٨:٣١-٣٢). يا لها من كلمات رائعة وعميقة! إن تأثيرها المباشر يشتمل حقيقة أن الخطيئة تجعل الإنسان في حالة عبودية فقط من خلال الفهم الخاطئ المغلوط. ومن الواضح أيضاً أن خطأ هذه التفاهات المدمر يكمن أيضاً، على وجه التحديد، في قبول ما هو في الجوهر ليس صالحاً على أنه صالح، وفي عدم قبول اعتباره شراً ما هو في جوهره شر قاتل.

من هو من الله يسمع كلام الله (راجع يوحنا ٨:٤٣) [١٠]، قال الرب. أيها الإخوة! فلنتواضع أمام الله ربنا! على عكس اليهود القساة الذين رفضوا الرب وتعاليمه معاً، فلنظهر خضوعاً للرب وطاعةً لتعاليمه المقدسة والخلافية! فلنضع جانباً طريقة التفكير التي تأتي من طبيعتنا الساقطة ومن العالم الذي هو في عداوة مع الله! فلنستوعب طريقة التفكير التي يقدمها لنا الرب في أناجيله المقدسة! فلنتبع الحق ونرث الحق. إن الحق يحرر العقل البشري من روابط الخطأ غير المنظورة التي كبلته بها الخطيئة.

إلى ذلك، فإن الحقيقة المطلقة، بعد أن أعطت الحرية الروحية للعقل، جدته وأعطته الحياة من فوق - بكلمة الله، تخرجه إلى طريق وصايا المسيح، وترفعه عن طريق الإثم (مزمور ١١٨:٢٩). إن النفس التي نشطها الحق ترتل مع النبي الملهم: "فِي طَرِيقِ وَصَايَاكَ أَجْرِي، لِأَنَّكَ تَرَحَّبُ قَلْبِي. عَلَّمَنِي يَا رَبُّ طَرِيقَ فَرَائِضِكَ، فَأَحْفَظُهَا إِلَى النَّهَائِيَةِ. فَهَمْنِي فَأَلْحِظْ شَرِيعَتَكَ، وَأَحْفَظُهَا بِكُلِّ قَلْبِي". (مزمور ١١٨:٣٢-٣٤). إن هذه النفس تصير بلا كلل شريكة للروح القدس الذي لا يسعه إلا أن يكون حاضراً حيث تحضر وتسود الحقيقة الإلهية؛ إن الحق، الذي يتحدث عن نفسه في مشورته السرية مع الحقيقة الكلية التقديس: "رَفِيقٌ أَنَا لِكُلِّ الَّذِينَ يَتَّقُونَكَ وَلِحَافِظِي وَصَايَاكَ." (مزمور ١١٨:٦٣) [١١].

ما دام الإنسان ثابتاً في طبيعته الساقطة، وما دام مغموراً بظلام جهله الشديد العمق، فإنه لا يعرف كيف يصلي، ولا يعرف ما الذي يجب أن يصلي من أجله (راجع رومية ٨:٢٦)، ويبقى عاجزاً عن خدمة الله. وحده الإيمان بالمسيح يعطي معرفة الحقيقة؛ الإيمان، الذي يعبر عنه بإتمام وصايا المسيح، يجذب نعمة الروح القدس إلى قلب المؤمنين، كما قال النبي الموحى به من الله: "فَعَزَّتْ فَمِي وَلَهْتُ، لِأَنِّي إِلَى وَصَايَاكَ اشْتَقْتُ". (مزمور ١١٨:١٣١). وحده المسيحي الحقيقي، المسيحي في الإيمان والعمل، يكون عابداً حقيقياً لله، عابداً وخداماً الله الأب، بالروح والحق. آمين.

Source: St. Ignatius (Brianchaninov). Homily on the Sunday of the Samaritan Woman. On Worshipping God in Spirit and in Truth. Translated by Nun Cornelia (Rees). Orthodox Christianity. 5/13/2012. <https://orthochristian.com/46643.html>

[١] متى جاء الفعري الذي سأزسله أنا إليكم من الأب، روح الحق، الذي من عند الأب ينبثق، فهو يشهد لي... وأما متى جاء ذلك، روح الحق، فهو يزهدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمر آتية.

- [٢] وَأَمَّا الْفَعْرِيُّ، الرُّوحُ الْقُدُسُ، الَّذِي سَيُزِيلُهُ الْآبُ بِاسْمِي، فَهُوَ يَعْلَمُكُمْ كُلَّ شَيْءٍ، وَيَذَكِّرُكُمْ بِكُلِّ مَا قُلْتُمْ لَكُمْ.
- [٣] ثُمَّ بِمَا أَنْتُمْ أَبْنَاءُ، أَرْسَلَ اللَّهُ رُوحَ ابْنِهِ إِلَى قُلُوبِكُمْ صَارِحًا: «يَا أَبَا الْآبِ».
- [٤] الَّذِي فِيهِ أَنْتُمْ أَيْضًا مَبْنِيُونَ مَعًا، مَسْكَنًا لِلَّهِ فِي الرُّوحِ.
- [٥] لِكَيْ يُعْطِيَكُمْ بِحَسَبِ غَنَى مَجْدِهِ، أَنْ تَتَأَيَّدُوا بِالْقُوَّةِ بِرُوحِهِ فِي الْإِنْسَانِ الْبَاطِنِ، لِيَجْلَلَ الْمَسِيحُ بِالْإِيمَانِ فِي قُلُوبِكُمْ، وَأَنْتُمْ مُتَأَصِّلُونَ وَمُتَأَسُّسُونَ فِي الْمَحَبَّةِ.
- [٦] قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الْآبِ إِلَّا بِِي.»
- [٧] الرُّوحُ نَفْسُهُ أَيْضًا يَشْهَدُ لِأَزْوَاجِنَا أَنَّنَا أَوْلَادُ اللَّهِ.
- [٨] الْقَدِيسُ مَرْقَسُ النَّاسِكِ، النَّامُوسُ الرُّوحِيِّ، الْفِيلُوكَالِيَا، ١:٢
- [٩] مَنْ وَجَدَ حَيَاتَهُ يُضَيِّعُهَا، وَمَنْ أَضَاعَ حَيَاتَهُ مِنْ أَجْلِي يَجِدْهَا.
- [١٠] أَتَيْتُ حَرْجَتْ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ وَأَتَيْتُ. لِأَنِّي لَمْ آتِ مِنْ نَفْسِي، بَلْ ذَاكَ أَرْسَلَنِي. لِمَاذَا لَا تَفْهَمُونَ كَلَامِي؟ لِأَنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ أَنْ تَسْمَعُوا قَوْلِي. (يوحنا ٤:٣-٤٢:٨).
- [١١] بحسب تفسير القديس بيمن الكبير لهذا المقطع في الباتيريكون الروسي.